كيف نفهم التطور

للاستاذ السر ارثر كيث (١)

يصعب ان نحدد كلمة « تطور » الواسعة المعنى تحديداً ينطبق على مفهومها العلمي تمام الانطباق فانها قد تعني عملية «تحول» او «صيرورة» (Becoming) ولكننا اذا اطلقناها اجمالاً على ما نسميه بالتطور العضوي عنينا بها ان جميع مايحيط بنا من نباتات وحيوانات قد نشأت بفعل تحوُّل طبيعي مستمر من اسلاف ابسط في التركيب واعم في الصفات . وعلى هذا الاساس فهي تعني ان الحاضر هو ظل الماضي وابو المستقبل ، وقد كان لهذه الكلمة شأن كبير في وصفها الطريق الذي سارت عليه جميع الكائنات الحية في نشوئها حتى اصبحت كما هي في حالتها الحاضرة . وقد اتفق علماء البيولوجيا ان يطلقوا كلمة «نشوء» (Development) على ماسماه العلامة هارفي (Harvey) «تكون الفرخ من البيضة» ؛ وكلمة «تطور» (Evolution) على عملية تسلسل نسل الطيور من سلف يمتُّ الى الزحافات المنقرضة لايعرف عنه الا القليل او على تسلسل الطيول الحديثة ذوات الحافر الواحد في كل من قوائمها من جد اصلي ذي ثلاثة و اربعة حوافر ناشئة في كل قائمة ، كان يطأ بها الارض

على ان فكرة التطور وحدها لا تصل الى اي نظرية خاصة تفسر لنا العوامل التي تعاونت على تحقيق ذلك التحول التدريجي من شكل الى آخر . حتى ان المؤمنين بنظرية التطور انفسهم لايميلون الى قبول النظريات على علاتها كنظريتي «لا مارك» (Lamarck) و «داروين» في تفسير حدوث التحولات الطبيعة . فلو سأل شخص في اثناء المحادثات الاعتيادية هذا السؤال ، «هل تسلّم بالنظرية الداروينية ؟» ويكون القصد من ذلك السؤال « هل انت من المؤمنين بالتطور ؟ » لاشك انه سيجيب «نعم !» لان جميع بيولوجي العصر الحاضر يؤمنون بالتطور كحقيقة ثابتة . ولكن اذا وجه السؤال نفسه الى طائفة من علماء البيولوجيا فيقصد منه عندئذ «هل انت مقتنع بكفاية نظرية داروين لتفسير جميع التنوعات التي كونتها الطبيعة ؟» وهنا تختلف الاجوبة فيجيب البعض «نعم» والبعض الآخر «لا» وغيرهم « الى حد ما »

﴿الصورة التي رسمها لوتريطس﴾ لايوجد في الوقت الحاضر سوى صورة علمية واحدة تبين طريقة نشوء الكائنات الحية وبلوغها الحالة التي هي عليها الآن — وهي الصورة التطورية

---

(١) وردت الانباء الرقيقة بوفاة الاستاذ السر جون ارثر كيث العالم البيولوجي الانكليزي قرأينا نشر هذه المقالة من آثاره القلم البارع وقد عنها الى العربية بتير افندي اللوسي احد اعضاء الموصل بالعراق

للقياس، فانّ تعدية السلب بالتضعيف وهمز الأوّل متعارفة في كلام العرب كما قدمنا

ثم قالوا «هذّب الشجرة» بمعنى هذّبها ثم استعاروه للانسان فقالوا «هذّب فلاناً» بمعنى قطع من طباعه وأخلاقه كل شائن له، وفي مثل هذا قال النابغة

ولست بمستبق أخاً لاتلمّه على شعث أي الرجال المهذّب ؟

ثم بنوا له فعلاً من أفعال الغرائز والتغيّر إما على وزن «فعِل يفعَل» كفرح يفرح فرحاً وامّا على «فعَل يفعُل» كشرف يشرف شرفاً، ولم ينقل لنا اللغويّون إلاّ مصدره «المَهْذَب» بالتحريك، فهو مثل اشتقاقهم من «بلغ» أي وصل «بلُغ بلاغة» صار بليغاً ومن «أفصح اللبن: ذهبت رغوته» فصُح فلان صار فصيحاً ومن شرف المكان بكسر الراء «شرُف فلان» أي علا شأنه ومن «مجدت الابل» بفتح الجيم «مَجدُ فلان فهو مجيد» ويجوز أنهم كانوا يستعملون لـ «هذّب» الباب الرابع والخامس من الثلاثي المجرّد كقولهم «حمق وحمُق» و«ذئِب وذؤب» و«كدِر وكدُر» و«أنِس وأنُس» و«بخِل وبخُل» و«حرِمت الصلاة وحرُمت» و«سري وسرو» وسخي وسخو» و«عجِف وعجُف» و«سِر وسُر» للأسير و«خرِق وخرُق» و«سفِه وسفُه» ومن ثم قالوا «أدُب فلان فهو أديب» دلالاً من «هذّب»

أجاهلي لفظ الادب ؟

قال الدكتور طه حسين في ص ١٩ من كتاب الأدب الجاهلي «ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو أنا لانعرف نصّاً عربيّاً جاهليّاً صحيحاً ورد فيه لفظ الأدب، والشيء الذي لاشك فيه أيضاً أنا لانعرف أن لفظ الأدب قد ورد في القرآن، وكل مانعرفه هو أن هذه المادة قد وردت في حديث مهما يكن رأي المحدثين فيه فليس هو بالحجة القاطعة على أن النبي قد استعمل هذه المادة، وهذا الحديث هو قوله — ص — : أدبني ربي فأحسن تأديبي، هذا الحديث لايثبت حكماً لغويّاً إلاّ إذا ثبت ثبوتاً لايقبل الشك او كان من الراجح على اقل تقدير أنهُ صح بلفظه عن النبي، ولكنا بعيدون عن هذا كله، فنستطيع اذن أن نقول من غير تردّد أن ليس لدينا نص صحيح قطعي يثبت أن لفظ الادب وما يتصرف منهُ من الافعال والاسماء قد كان معروفاً او مستعملاً قبل الاسلام او إبان ظهوره» اهـ

والدكتور محق في أن حديث الرسول — ص — لا يبنى عليهِ أساس لغوي ولا استشهاد وقد نقل البغدادي في اول خزانة الأدب اقوال العلماء في هذا الامر ومعظمهم يذهبون ذلك المذهب فيهِ، وذكر مثلاً لذلك روايتهم عنهُ — ص — قوله : ملكتكها بما معك من القرآن زوجتكها بما معك ... خذها بما معك ...، وقال ابو سليمان الخطابي وجماعته : ان لفظ الحديث تناقلته أيدي العجم حتى فشا فيهِ اللحن وتلعبت بهِ الالسن حتى حرّفوا بعضهُ عن مواضعهِ، وما هذه سبيله فلا يحتج بالفاظه المخالفة لان المحدثين لم ينقلوا الحديث لضبط

الفاظه حتى يحتج بها بل لمعانيه ولهذا أجازوا نقل الحديث بالمعنى ، ولهذا تختلف الفاظ الحديث الواحد اختلافاً كثيراً »[1] . وقال صديقنا الاستاذ الزيات « عرف الجاهليون ولا ريب هذه الكلمة واستعملوها على التعاقب في معان ثلاثة » ثم قال « ولا عبرة بقول من نفى ذلك مستدلاً بعدم ورودها في الشعر القديم والقرآن الكريم فان ورودها على لسان الرسول (ص) في حديثه للامام علي (ك) وورودها على ألسنة الصحابة والتابعين دليل على وجودها في الجاهلية لان الرسول لم يرتجلها ارتجالاً وانما استعملها استعمالاً بدليل فهم الامام لها دون سؤال ولا مراجعة » قلنا : اما القول الاول فممكن ولكنهُ لم يؤيده بالرواية اللفظية الصحيحة ، واما النقل الثاني فلا أرتضيه له صيانة مني لتحريه وتحقيقه وتثبته في قضايا الادب العربي ، وهو بعد صديق كريم

قلنا آنفاً ان الادب صفو الهذب وهو في الاصل الخلوص والصفاء ، ولقد ورد الادب في الكلام الجاهلي بخلاف ما زعم الدكتور طه حسين وورد في كلام الامام علي بن ابي طالب — ع — اما من ورد في كلامه من الجاهليين فهو اكثم بن صيفي خطيب بني تميم الشهير قال ابو هلال العسكري في الكلام على المثل « ويل للشجي من الخلي » ما نصه « المثل لاكثم بن صيفي ، وذلك انهُ ذكر له رسول الله — ص — فكتب اليه « باسمك اللهم فأدبني بآدابه ، من العبد الى العبد ، اما بعد فبلغنا ما بلّغك الله خير خير ما اوصله ، إن كنت رأيت فأرنا وان كنت علمت فعلمنا وأشركنا في خيرك » وكان الكتاب مع رجل اسمه « جيش » قالوا أبو هلال « فتبعه مائة من عمرو وحنظلة وخرج الى النبي — ص — فلما كان في بعض الطريق عمد جيش الى رواحلهم فنحرها وشق ما كان معهم من قربة وهرب ، فأجهد اكثم العطش فمات وأوصى من معه باتباع النبي — ص — وأشهدهم أنه اسلم فأنزل الله فيه : ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله [2] » فقوله « فأدبني بآدابه » لايحتمل الشك ولا التأويل لورود الأدب جمعاً مع فعل التأديب ، وقال الامام علي — ع — كما في نهج البلاغة « قد دارستكم الكتاب وفاتحتكم الحجاج وعرفتكم ما انكرتم وسوغتكم ماجعجتم لو كان الاعمى يلحظ أو النائم يستيقظ وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة [3] » عنى بابن النابغة عمراً بن العاص ، وقال يصف رجلاً « قد لبس للحكمة جنتها وأخذها بجميع آدابها [4] » ، وكتب عبد الله بن عامر إلى معاوية « ولنعم مؤدب العشيرة أنت وإنا لنرجوك بعد عثمان [5] » وقال علي أيضاً « وادبتكم بسوطي فلم تستقيموا وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا [6] » وقال حجر بن عدي الشهيد لعلي « يا أمير المؤمنين تقبل عظتك وتتأدب بأدبك [7] » فالأدب وأفعاله مستفيضة في كلامهم ، أما أطوار الأدب فليس لنا من الوقت مايسهل الكلام عليها ولكن سنفي بالوعد

بغداد — مصطفى جواد

(١) المصباح المنير مادة «وسط» (٢) جمهرة الامثال ص ٢٠٣ طبعة مصر (٣) شرح ابن أبي الحديد «٢:٥٢٦» (٤) الشرح «٢:٥٣٥» (٥) الشرح «٢:٥٣٦» (٦) الشرح «٢:٥٣٦» (٧) الشرح «١:٢١١»